نماذج من الاسطوغرافيا المحليّة المناوئة لسياسة الدولة العثمانية في الجزائر

دراسة انثروبوتاريخية

الدكتورة نعيمة رحماني

جامعة تلمسان / الجزائر

الملخّص:

سخّرت الاسطوغرافيا الغربية التاريخ في سياق المرامي الايديولوجية ذات الابعاد النسقية الاستعمارية القائمة على احتقار الآخر ضمن نظرياتها التغريبية والاستعلائية التي تبجّل الجنس الغربي، وتذلّ الجنس الجزائري المسلم، باعتباره مجتمعا لا تاريخيا في حاجة دائمة لمن يقوده ويتزعّمه. وكردّ فعل مضادّ للمغالطات التاريخية الغربية خاصة الفرنسية منها، برزت تدافعات ثقافية على شكل تصورات وأطارح وآراء لثلّة من المؤرخين الجزائريين، منها الأيديولوجية المُسيَّسة، ومنها العلمية البحتة، ومنها العاطفية، واتخذت موضوعا غائيا لها اندرج تحت راية الدفاع عن كينونة الدولة الجزائرية قبل الاحتلال الفرنسي. فبرزت على الساحة العلميّة اسطوغرافيا مضادّة لما روّجت له الاسطوغرافيا الغربيّة وفي الوقت نفسه مناوئة للفترة العثمانية في الجزائر. في خلال هذا الطرح تنطلق مساءلتنا؛ فما هي توجهات مؤلفيها؟ وهل تمكّنوا فعلا من دحض المغالطات الاسطوغرافية الغربية؟ وما هي أسباب مناوءتهم للدولة العثمانية؟ وهل كانت تلك الاسطوغرافيا موضوعية ام ذاتية مؤدلجة؟

الكلمات المفتاحية: الاسطوغرافيا المحلية؛ الجزائر، الفترة العثمانية .

Examples of local histography against the policy of the Ottoman Empire in Algeria

Historical Anthropology Study

Dr. Naima Rahmani

Tlemcen University

Abstract:

Western mythology has exploited history in the context of ideological objectives of colonial and systemic proportions, based on the contempt of the other in its Western and transcendental theories. venerating the Western race and humiliating the Algerian Muslim race. As a society that does not have historically and needs leaders, in response to historical Western mistakes, especially French ones. Cultural impulses have emerged in the form of perceptions, theses and opinions in three forms; politicized, purely scientific, and emotional, It took a teleological subject pertaining to the defense of the Algerian state before the French occupation. A counter-mythology emerged in the scientific arena for what Western mythology promoted while opposing the Ottoman period in Algeria. In this process, we present the following problematic;What are the orientations of their authors? Have they been able to refute Western mythological sophisms? What are the reasons for their hostility towards the Ottoman Empire? Was this mythology objective or a subjective ideology?

Keywords: local mythology; Algeria, Ottoman period

لقد تضمّنت الاسطوغرافيا **المناوئة** لسياسة الدولة العثمانية في الجزائر، بعض الأقلام الجزائرية التي دوّنت التاريخ باللغة الفرنسية، وكانت تتبنى الطرح نفسه الرامي الى دحض مغالطات الاسطوغرافيا الفرنسية، حيث سعت جاهدة الى وصْل الشعب الجزائري بتاريخه العريق، وإيقاد روح الاصالة والوطنية فيه، مع رفض سياسة الحكام العثمانيين بنسب متفاوتة.

ونذكر على سبيل المثال المؤرخ **محمد الشريف ساحلي** (1906م-1989م)، المعروف بمؤرخ التاريخ المضاد؛ أي التاريخ الذي يحاول اثبات وجود كيان الدولة الجزائرية قبل 1830م، بطرح مخالف للطرح الذي تناولته الاسطوغرافيا الفرنسية، بغية توعية المجتمع الجزائري حول المخططات الاستدمارية الفرنسية التي كانت ترمي الى "تقزيم الامة المغاربية واعتبارها كمّا بشريا منقادا لا قائدا، امة لا تظهر الا في ثوب غيرها، امة يستعصي عليها بناء كيانها السياسي."[1]

وقد استعرض المؤرخ **محمد الشريف ساحلي** أفكاره على شكل صرخة في مؤلفه بعنوان " Décoloniser l'histoire" عام 1965م، الذي ترجم الى العربية بعنوان "**تخليص التاريخ من الاستعمار**"، حيث صاغ فيه التنظيرات الغربية الفرنسية التي كان همها الوحيد في نظره "طمس ماضي هذه الشعوب حتى يتسنى لهم اقناعها بـ" قصورها الفطري عن الاستقلال، وبضرورة قبول حياة الذل والهوان."[2]

وقد سعى الى اسقاط ذلك النسق الاستدماري التنظيري في خلال فضح وتحليل الطرق والتصورات والاساطير الباطلة التي انتهجها ذلك النسق، فتناول معلومات المؤرخين الفرنسيين التي كانت **خارج كل تسلسل زمني**، وظلت ناقصة، مركزة على **أوضاع شمال افريقيا الحرجة**، ومنظرة **بعدم أهلية تلك الشعوب للاستقلال**، فاستشهد بما جاء في المؤلف "**تاريخ شمال افريقيا**" لـ ش.أ.جوليان Charle –André .Julien و س.كورتوا C.Courtoix "كلما توغلنا في تاريخ شمال افريقيا، لاحظنا ان كل شيء يحدث كما لو كانت هذه المنطقة قد أصيبت بعدم أهلية للاستقلال".[3]

ثم عرض التنظيرات الفرنسية التي شدّدت على **عدم قدرة تلك الشعوب على توحيد الصفوف**، وبانها من **المقهورين دوما**، واستشهد بمؤلف "**ماضي شمال افريقيا**" لـ ايميل فليكس غوتييه Emile-Félix Gautier الذي جاء فيه: "كلما توغلنا في الماضي، لاحظنا سلسلة متصلة من الاحتلالات الأجنبية، فالفرنسيون حلوا محل الاتراك الذي خلفوا العرب، وكان هؤلاء العرب قد سدوا مسد البيزنطيين الذين نابوا مناب الوندال، قد قاموا مقام الرومان الذين كانوا قد خلفوا القرطاجيين، ولا بد من ان نشير الى ان الغزاة، مهما كانوا يظلون اسياد المغرب الى ان يخرجوهم منه غزاة جدد. فما أفلح الأهالي يوما في طرد الغزاة الاسياد."[4]

ثم تطرق المؤرخ الى النظرية التي اعتبرت **شخصية المغرب سلبية**، مستشهدا بالمؤلف السابق ل غوتيي "من بين العروق البيضاء المتوسطية، يمثل المغربي بلا شك، ذلكم المتباطئ الذي ظل بعيدا عن القافلة...فليس لهذا

---

[1] الطيب آيت حمودة، محند الشريف ساحلي وحرب الذاكرة في الجزائر، م2018، قال استخرج من الرابط http://www.ahewar.org/debat/show.art.asp?aid=586931&r=0، بتاريخ 2019/04/02، على الساعة 11.11

[2] محمد الشريف ساحلي، تخليص التاريخ من الاستعمار، ترجمة محمد هناد ومحمد الشريف بن دالي حسين، منشورات الذكرى الأربعين للاستقلال، ص5

[3] محمد الشريف ساحلي المرجع السابق، ص11

[4] المرجع نفسه، ص12

العرق فردية إيجابية."[5] وتناول أيضا تنظيرهم لمبدأ **الحتمية** الذي اعتمدته الاسطوغرافيا الفرنسية، كفكرة دوام غرضها ابراز الجمود.[6] وذكر **ضربة المروحة** التي أدت الى احتلال الجزائر في العهد العثماني، حيث اعتبرها مُبيّتة مستشهدا بقول العالم الاقتصادي سيسموندي Sismondi : "مملكة الجزائر هذه لن تكون مجرد غزو، سوف تكون مستعمرة، سوف تكون بلدا جديدا سيوجه اليه الفائض من السكان والمنتوجات الفرنسية."[7] ثم تحدّث عن **اسطورة الادماج** مبينا ان الاسطوغرافيا الفرنسية سعت الى تشويه الوقائع للوصول الى خلاصة مفادها ان الجزائر كانت "سنة 1830، ارضا شاغرة وشعبا مستعدا لتقبل عملية ادماج زُعم انها كانت ذات اهداف سامية تتماشى والعبقرية الفرنسية."[8]

وبخصوص سياسة الدولة العثمانية في الجزائر فقد نوّه المؤرخ **محمد الشريف ساحلي** بالتنازلات التي قدمتها الجزائر في العهد العثماني لفرنسا والتي سمحت لهذه الأخيرة ببسط نفوذها على الجزائر، حيث ذكر: "ان التنازلات التي قدمها الحكم التركي لفرنسا سنة 1535م، قد منحتها مكانة مرموقة على مستوى العلاقات بين سلطة الجزائر والعالم المسيحي، وقد تعودت فرنسا بفعل ذلك على اعتبار الجزائر منطقة نفوذ لها حتى بعد زوال الوصاية التركية عليها، ولا شك انها حصلت على فوائد جمة، سياسية، عسكرية، اقتصادية وتجارية."[9] واعتبر السياسة العثمانية "سياسة كثيرا ما تجاهلت مصالح البلاد... اوليغارشية جشعة متلهفة على جمع الثروات".[10] وهي مماثلة للطرح الفرنسي الذي لم يستطع تجنّبه مثل المؤرخين السابقين. وبهذا اتخذ المؤرخ موقفا مناوئا للحكم العثماني في الجزائر، واعتبره خائنا لشعبه.[11]

وعن رايه حول التاريخ فقد دعا الى إعادة كتابة تاريخ الشعوب وفق أسس جديدة لدحض تلك النظريات التغريبية، وعدم الاقتصار على الوثائق فقط بل أيضا بالكلمات، الإشارات، المناظر، حبات القرميد، اشكال الحقول والنباتات...خسوفات القمر، واطواق حيوانات الجر، ودراسة الأحجار من طرف الجيولوجيين، وتحليل السيوف المعدنية من طرف الكيميائيين.[12]

وقد ساند الطرح المضاد للطرح الفرنسي أيضا المؤرخ **محي الدين جندر** ولكنّه آخذ العالم ابن خلدون على بعض أفكاره التي استعان بها الاسطوغرافيون الفرنسيون واعتبروها تعليلا مقنعا لتأخر المنطقة، وتعثرها الدائم في

---

[5] المرجع نفسه، ص15

[6] المرجع نفسه، ص45

[7] المرجع نفسه، ص68

[8] المرجع نفسه، ص75

[9] محمد الشريف ساحلي، المرجع السابق، ص69

[10] المرجع نفسه، ص71-72

[11] احمد عبيد، التاريخ الجزائري: تقييم ونقد حالة الجزائر العثمانية، استخرج من الرابط.https://journals.openedition.org/insaniyat بتاريخ 2018/10/22 على الساعة 17.59

[12] محمد الشريف ساحلي، مرجع سابق، ص108

أحضان اللاتاريخ، وقد تحامل عليه لأنه اقر الثنائيات "البربر في مواجهة العرب، والحضر في مواجهة البدو، ولأنه لم يعمل على تكريس فكرتي الوطن والشعب.[13] بالإضافة الى انه تناول تاريخ الجزائر في العهد العثماني في مؤلفه "**مقدمة في تاريخ الجزائر**"، معتبرا ان الدولة العثمانية (دولة الاتراك الاوجاق والرياس)، "أنشئت وتدعمت وحافظت على بقائها لا نتيجة تطور محلي ساهم به السكان، وانما بفضل تحكم الاقطاع وتفكك المجتمع وتلاشي السلطة وركود الاقتصاد وانهيار المدن وتقهقر الزراعة." [14]

في حين ذهب المؤرخ **عبد الحميد ابي زيان بن اشنهو** (1907–1976م) صاحب المؤلف المشهور "**دخول الاتراك العثمانيين الى الجزائر**" الى تبني الطرح نفسه الرامي الى دحض التنظير الغربي واكّد ان المؤرخين الفرنسيين زعموا "ان تاريخ المغرب العربي انما هو سلسلة حوادث دامية، وان بلادنا تعيش في عزلة عن البلاد الأوروبية المجاورة لها وفي حالة فوضى، بينما كانت تلك الأقطار على زعمهم تمتاز بالرقي والحضارة، لا علاقة لها بالدول "البربريسك" كما كانوا يسمونها والتي كانت تعيش من القرصنة وقطع الطرق." [15] وقد سعى الى تفنيد تلك الاقاويل العنصرية، مبيّنا ان الجزائر كانت دائما وابدا على اتصال مع البلاد الأوروبية الجنوبية والاسيوية المجاورة للبحر الأبيض المتوسط. وفي طرحه لقضية كينونة الجزائر قبل الاستدمار الفرنسي ذهب الى ابعد من الفترة العثمانية، حيث اكّد ان "الجزائر كانت دولة من اكبر الدول في عهد بني يغمراسن الاولين وقبلهم، وكان لها في عصرهم شعب وامة وحدود ترابية ودواليب إدارية وتقاليد...تلك الشروط التي تتوفر لقيام امة ودولة، انما هزمت الدولة ونهض مغامرون وشتتوا شملها."[16] وعن نظرته للحكم العثماني في الجزائر، يمكننا القول انه أشاد بأعمال الدولة ولكنه حمّلها مسؤولية استعمار الجزائر من قبل فرنسا قائلا:" لقد امتاز الحكم العثماني في الجزائر بالشدة والقساوة...لكنه رغم ذلك ...ابعد بالحروب البحرية الاستعمار الاسباني والبرتغالي من المغرب العربي، واحبط مطامحه الشرسة...وآزر السلطان سليمان القانوني في الظفر الباهر الذي فاز به بعد إعطاء الضربات القاسية لأساطيل أوروبا المتحالفة، لكنه هيّأ الجو بأعمال القرصنة للاستعمار الثاني العصري الذي اذاق بلادنا اكثر من غيرها مرارة سمّه."[17] كما اعتبر الإدارة التركية " أداة تعمل لملء أكياس الخزينة، وجيوب الأقلية التركية الحاكمة المسيطرة، مما جعل ثروة البلاد في مثل هذا الوضع اشبه شيء بقطعة حلوى كل موظف يأخذ منها حسبما يخوله له منصبه."[18] وهو يشاطر المؤرخين السابقين رايهم حول هذه النقطة.

---

[13] محمد غانم، المؤرخون الجزائريون والمرجعية الخلدونية، مجلة انسانيات، الجزائر، عدد مزدوج 65–66 جويلية ديسمبر 2014، ص28

[14] ناصر الدين سعيدوني ، ورقات جزائرية ، دراسات وابحاث في تاريخ الجزائر في العهد العثماني، ط2، دار البصائر، 2008م، ص30، نقلا عن Mehieddine Djender, Introduction à l'histoire de l'Algérie, Alger , SNED,1968, p65

[15] عبد الحميد ابي زيان بن اشنهو، دخول الاتراك العثمانيين الى الجزائر، الجيش الشعبي الوطني، 1972م، ص7

[16] المرجع نفسه، ص29

[17] عبد الحميد ابي زيان بن اشنهو، مرجع سابق، ص224

[18] ناصر الدين سعيدوني، ورقات جزائرية، مرجع سابق، ص30 نقلا عن Abdelhamid Benachenhou, L'Etat algérien en 1830, SNED,Alger SD, Sd, P27

أما المؤرخ **مولود قايد** (1916–2000م) الرجل المجاهد والسياسي والنقابي الذي اهتم بأحياء البعد الامازيغي في الهوية الجزائرية، في خلال مؤلفه "**البربر في التاريخ**" بأجزائه السبعة، و"**تاريخ الجزائر من ما قبل التاريخ الى الأزمنة المعاصرة**"، تناول تاريخ الجزائر في العهد العثماني في مؤلفه "**التواجد العثماني في شمال افريقيا**"، و "**الجزائر تحت حكم الاتراك**"، وخلص الى ان "الاتراك أجانب، وقد ظلوا أجانب طيلة القرون الثلاثة، وذلك لعدم تمكنهم من الاتصال بالسكان المحليين."[19] نلمح هنا ان المؤرخين المذكورين قد اتفقوا من حيث دحض التنظيرات الغربية في عملية مضادة، ولكنهم في الوقت نفسه تبنوا بعضها خاصة تلك التي تجعل من كل الحكام العثمانيين مجرد جامعي الأموال، وهي تنظيرات فنّدها مؤرخون آخرون كانوا منصفين للدولة العثمانية.

ختاما يمكننا القول ان الاسطوغرافيا المحلية حول ثيمة الجزائر في العهد العثماني بين فترتي الاستدمار والاستقلال قد عرفت اتجاهات فكرية متباينة، منها المتعاطفة ومنها المناوئة، ومنها المنصفة المنحازة وغير المنحازة. وقد اختلفت أسباب وغايات كل فئة، واختلفت معها أساليب سرد الاحداث التاريخية بحسب الاطروحات المتبنّية. تلك الاطروحات التي أجمعت وتوافقت على دحض وإبطال التنظيرات الغربية التغريبية، ولكنها في سعيها هذا وردت بعضها حاملة لانساق أيديولوجية سعت الى فرض طرحها. فقد تشبّعت الاسطوغرافيا المناوئة والمعارضة للدولة العثمانية في الجزائر بأفكار الاسطوغرافيا الغربية وتبنّت رفضها وتشويهها للوجود العثماني الإسلامي، متأثرة ببعض القومية العربية التي أدلجت الأفكار. وقد اختصر قول المؤرخ أبو القاسم سعد الله الوضع قائلا: "المنتصرين للعثمانيين في الجزائر يعتبرون هؤلاء الحكام اتراكا مسلمين وكفى، وكأنه يكفي المرء ان يكون مسلما كي يرتكب ما يشاء. واما المعارضون فيظلمون الاتراك الحقيقيين بجعل حكام الجزائر ممثلين لهم في كل شيء، وكلا الفريقين في نظري على خطأ، فهذه القضية اذن ما تزال في حاجة الى الدرس والتوضيح." [20] ورغم تباين آرائهم إلا اننا نجدهم قد اتفقوا حول ضرورة دراسة التاريخ الجزائري في هذه الفترة، حيث تناول المؤرخ **أبو القاسم سعد الله** مسألة مهمة وهي اعتماد الباحثين الجزائريين على ما روّجت له الاسطوغرافيا الفرنسية، وقد حذّر من هذا الفعل قائلا:" ...الجزائريين تركوا الأجانب لا سيما الفرنسيين يكتبون تاريخهم، ومن الغرابة ان ينجح الجزائريون في تصفية الاستعمار وآثاره في بلادهم، بينما يعجزون حتى الان عن وضع تاريخ شامل لهم....فالجزائريون اليوم يعودون لمعرفة تاريخهم الى كتابات الفرنسيين رغم اعترافهم في قرارة انفسهم بانها كتابات متحيزة وموجهة، ولا غرابة بعد ذلك ان يعود العرب الى هذه الكتابات عن الجزائر ويعتبرونها مصادر أساسية لهذا البلد."[21] وقد دعا الشيخ **المهدي بوعبدلي** ايضا إلى "دراسة هذا الماضي دراسة علمية دقيقة، مجردة عن الأغراض والارتجال. وهذا يتوقف قبل كل شيء على جمع الوثائق المختلفة لذلك العهد، ودرسها من جديد...حتى يتسنى للخلف ان يعرفوا حقائق ماضي البلاد بصورة واضحة وان يطلعوا على

---

[19] المرجع نفسه، الصفحة نفسها، نقلا عن Mouloud Kaid, L'Algérie sous les turcs, Tunis, 1974, p6

[20] أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج1، دار الغرب الإسلامي بيروت، ط1، 1998م، ص14

[21] أبو القاسم سعد الله، الحركة الوطنية الجزائرية، ج3، دار البصائر، الجزائر، 2007م، ص10

المشاكل التي واجهت السلف وتغلب عليها او تغلبت عليه."[22] حيث استعان الشيخ في انتاجاته العملية بالوثائق وبين انها "تكشف لنا حقائق تاريخية هامة، حاول بعض الكتاب الأجانب اماطة اللثام عنها، فأعوزتهم المصادر الاصلية التي جاد علينا بها الزمان."[23] كما قدّم نصائح للمشتغلين في التاريخ واشترط في الباحث "ان يتحرى الصدق في النقل، وان لا يتسرع بالتصرف في النصوص او بالحكم حسبما تمليه عليه الاهواء، او التيارات الفكرية، فيؤول النصوص، او يلفق منها ما يؤيد رايه، او مذهبه في الظروف التي يعيش فيها...فيندفع معها الراي العام على غير هدى وروية. "[24] أما المؤرخ **ناصر الدين سعيدوني** فذهب الى ان "اغلب انتاج المؤرخين الفرنسيين ...يبتعد الى حد كبير عن الموضوعية والحياد ويرتبط بخدمة الأغراض الاستعمارية، والاهداف السياسية. فلم تتخلص اغلب الدراسات ...من المنظور الاستعماري رغم توفرها على مناهج وطرق الدراسة العلمية..."[25]فهي تتصف بقلة العمق وسرعة الاحكام وسطحية التفسير وتحيز المواقف، مما يوجب اخضاعها للتمحيص والمقارنة والنقد عند قراءتها او الرجوع اليها."[26] وقد أكّد أيضا على أن جلّ الاسطوغرافيا الفرنسية المتعلقة بالجزائر في العهد العثماني هي دراسات مغرضة، ذات اهداف تخدم النسق الاستدماري الفرنسي في مجال التاريخ، في خلال اخضاعها منهجية التاريخ ومتطلبات البحث الى واقع الاحتلال ومرامي السياسة الاستدمارية، مما جعل قيمتها العلمية منحطة وتنزل في بعض الأحيان الى مستوى الدعاية المغرضة.[27] لهذا كله وجب على الباحث في المجال التاريخي تبني النظرة الموضوعية ، والتعامل مع كل مادة علمية بمنطق الحذر والاحتياط وليس بالإلغاء، مع تفضيل نسبية الحقائق على الحقائق المطلقة. والإفادة من المصادر والمراجع الموضوعية في توليفة علمية تكمّل بعضها، وتسدّ ثغرة في المصادر الأخرى.

المصادر والمراجع:

1- أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج1، دار الغرب الإسلامي بيروت، ط1، 1998م
2- أبو القاسم سعد الله، الحركة الوطنية الجزائرية، ج3، دار البصائر، الجزائر، 2007م
3- احمد سحنون الراشدي، تح، الشيخ المهدي البوعبدلي، ط1، عالم المعرفة للنشر والتوزيع، الجزائر، 2013،

[22] احمد سحنون الراشدي، تح، الشيخ المهدي البوعبدلي، ط1، عالم المعرفة للنشر والتوزيع، الجزائر، 2013، ص12

[23]ناصر الدين سعيدوني، المهدي بوعدبلي، الجزائر في التاريخ، العهد العثماني، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1984م ، ص127

[24]احمد سحنون الراشدي، مصدر سابق، ص12

[25]ناصر الدين سعيدوني، ورقات جزائرية، مرجع سابق، ص18

[26]المرجع نفسه، ص18-19

[27]المرجع نفسه، ص35

4- احمد عبيد، التاريخ الجزائري: تقييم ونقد حالة الجزائر العثمانية، استخرج من الرابط.
https://journals.openedition.org/insaniyat بتاريخ 2018/10/22 على الساعة 17.59

5- الطيب آيت حمودة، محند الشريف ساحلي وحرب الذاكرة في الجزائر، م2018، قال استخرج من الرابط http://www.ahewar.org/debat/show.art.asp?aid=586931&r=0، بتاريخ 2019/04/02، على الساعة 11.11

6- عبد الحميد ابي زيان بن اشنهو، دخول الاتراك العثمانيين الى الجزائر، الجيش الشعبي الوطني، 1972م

7- محمد الشريف ساحلي، تخليص التاريخ من الاستعمار، ترجمة محمد هناد ومحمد الشريف بن دالي حسين، منشورات الذكرى الأربعين للاستقلال

8- محمد غانم، المؤرخون الجزائريون والمرجعية الخلدونية، مجلة انسانيات، الجزائر، عدد مزدوج 65-66 جويلية ديسمبر 2014

9- ناصر الدين سعيدوني، المهدي بوعدبلي، الجزائر في التاريخ، العهد العثماني، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1984م

10-ناصر الدين سعيدوني، ورقات جزائرية، دراسات وابحاث في تاريخ الجزائر في العهد العثماني، ط2، دار البصائر، 2008م